(٢٦)

العلم يدعو للإيمان

العدد (٨١) رمضان (١٣٩١هـ) أكتوبر (١٩٧١م)

إلى متى يظل الإنسان منطلقا في هذه الحياة كالقذيفة الطائشة، لا يدري كيف يسير، ولا إلى أين المصير؟

وإلى متى يبقى مندفعا بقواه المذخورة وأهوائه المحصورة حتى إذا نفدت قوته وبطلت حركته سقط حيث طاشت به مطارح الدنيا؟

﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (**الحج: ٣١**).

عجبت لقوم ينكرون الله، ويجحدون مبتداهم منه ومنتهاهم إليه!

وأعجب من ذلك أن يتوسلوا إلى إلحادهم بالعلم! العلم الذي هو نهج الإيمان بالحق، ودليل الوجود الأعلى!

فإذا ذهبت تتعرف شبههم وجدت إما قصورا في العلم يلحق صاحبه بالجهال، وإما غرورا بأدنى الحظوظ منه.

والمغرور بالقليل يرسل أحكامه مبتسرة مضللة، لا وزن لها ولا معول عليها.

وفي بلادنا صنف من الناس ليس له زاد من المعرفة، إلا قراءات على هامش الأسفار الضخام التي كتبها العلماء الراسخون.

قابلت أحدهم يوما ما وما زلت أذكر الحوار العنيف الذي دار بيني وبينه! كان هذا المغفل يجادلني في وجود الله، ويسوق كلمات حفظها من نظرية النشوء والارتقاء، ويريد ليوهمني أن خلق الإنسان سوي المشاعر نابض الأجهزة لماح الذكاء أضحى عملا في مقدور العلم وأن معامل الكيمياء توشك أن تفاجئنا بهذا الاختراع!

فلما تحسست حصيلة هذا المجادل من علوم الكون والحياة وجدتها قشورا يسيرة، فاستغربت أن رجلا بضاعته حروف الهجاء في فن من الفنون يصطنع فيه درجة الإمامة التي تمحو وتثبت! وفي ماذا؟ في حقيقة الوجود الأعلى!

فاكتفيت بأن أكشف لهذا المغرور جهالته، ثم تركته، وعلى لساني قول الشاعر:

نجا بك عرضك منجى الذباب حمته مقاذيره أن ينالا!

وتذكرت قول الله تبارك تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (**الحج**: ٨، ٩).

من الخرافات الشائعة، أن كثيرا من عظماء التاريخ لا أخلاق لهم، وأن كثيرا من علماء الكون لا إيمان لهم!

وأحسب أن ترويج هذه الخرافة بعض ما تلجأ إليه الشياطين في محاربة الإيمان والأخلاق، حتى تنشأ الأجيال الغضة وهي تحسب التحلل والتمرد أقصر الطرق إلى العبقرية والسمو!

والحق أن عرى الأخلاق هي التي صنعت ألوف الرجال، وأن الإيمان بالله حقيقة مقررة لدى جمهور العلماء الراسخين.

نعم قد تكون لدى هؤلاء العلماء رِيَبٌ في أغلب الديانات المشهورة أو فيها كلها، بيد أن العيب لا يرجع إلى أولئك العلماء الماديين قدر ما يرجع إلى أصحاب الأديان الذين شوهوا رسالات الله، إما بتحريف الكلم عن مواضعه، وإما بالأعمال الشائنة التي تضع من أقدار المتدينين، وما يحملونه من دين.

والقرآن الكريم لم يصم بالكفر إلا قوما تكشّف لهم الحق فجحدوه، وعرض عليهم الدين كاملا فأزروا به وانتقصوه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٥) ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ...﴾ (النساء: ١١٥)

أقول ذلك بعدما انتهيت من مطالعة كتاب «العلم يدعو للإيمان» وموضوع الكتاب يفهم من عنوانه أنه تعريف بالخلائق يقودك إلى خالقها وشرح للكون ينتهي بك إلى باريه.

وهل للإيمان الذكي العميق نبع يجيش به إلا من هذه المطالعة الدارسة للحياة والأحياء؟ ولأمر ما قال الله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥).

إن الإيمان لا ينمو في قلب، ويتخلل شعابه، ويغمر رحابه إلا بمدى ما يعي المرء من آيات الله في ملكوته.

ومسلك المؤلف العالم في كتابه هذا يقوم على عرض الحقائق المتيقنة عرضا لا أثر فيه للأوهام والفروض، ولا مكان فيه للمغيبات والنصوص.

إنه يحترم قوانين المنطق الحديث والفلسفة الحرة ويستهدي إلى غاياته طرقا لا يختلف على صحتها المؤمنون بما وراء المادة والجاحدون لها.

ولقد تابعته بعقلي كما تتبع العين الأشعة الكاشفة، وهي تنتقل من أقصى الأفق إلى أقصى الأفق، إن ثروة هذا الرجل في المعارف الكونية طائلة هائلة، وإنك لتعجب أهو أخصائي في الفلك أم في التشريح أم في الكيمياء أم في غيرها؟

ولا غرو فهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، فحديثه عن العالم الكبير الذي نعيش فيه، وعن القوانين الضابطة لسيره، وعن الأسرار الكامنة في

متونه وحواشيه حديث الخبير الراسخ المتأنق في سرده واحتجاجه!

والكتاب كله تفصيل مطرد متسق، لما أسماه علماء التوحيد عندنا بدليل الإبداع، وأساس هذا الدليل على وجود الله لفت النظر إلى ما في الكون من دقة وحكمة.

هل رأيت شريط السكة الحديد الممتد من القاهرة إلى الإسكندرية مثلا؟

إنه يربو على مائتي ميل.. والمسافة بين الخطين المتوازيين المهدين لانطلاق عجلات القطار فوقهما لا تزيد ولا تنقص مع بعد الشقة!

ألا يدل ثبات هذا العرض على إعداد مقصود لسير القطار فوقه؟ ألا تدل طريقة المد والتمكين على أن القطار المنساب سيجري بسرعة معينة؟ ويحمل أثقالا كثيرة؟

هل إذا رأيت أذرعة القاطرة تغمز العجلات بعدما حركتها سلسلة مضبوطة منسقة من الآلات والأجهزة، فإذا القطار يتحرك وينهب الأرض نهبا، أتحسب أن هذه الأجهزة المتراكبة والآلات المتناسقة قد أخذت أوضاعها العتيدة من غير فكرة صاحبتها وغرض تنتهي به؟

هذا مستحيل!

على هذا النحو أخذ الباحث الضليع يسوق آلاف الأمثلة من حقائق الأرض والسماء فإذا أنت أمام حشود لا آخر لها من براهين الوجود الأعلى، اسمع إليه يقول:

«قد رأينا أن العالم في مكانه الصحيح، وأن قشرة الأرض مرتبة إلى مدى عشرة أقدام، وأن المحيط لو كان أعمق مما هو بضعة أقدام لما كان لدينا أوكسجين ولا نبات! وقد رأينا الأرض تدور كل أربع وعشرين ساعة، وأن هذا الدوران لو تأخر لما أمكن وجود الحياة، ولو زادت سرعة الأرض

حول الشمس أو نقصت لتغير تاريخ الحياة إن وجدت تغيرا تاما، وقد رأينا هذه الشمس هي الوحيدة بين الآلاف التي جعلت حياتنا على الأرض ممكنة وأن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها يجب أن تكون صحيحة كلها على ما وجدناها، وهي صحيحة فعلا، ورأينا أن الغازات التي بالهواء منضم بعضها إلى البعض بنسب دقيقة، وأن أقل تغيير فيها يكون قتالاً... إلخ».

ماذا يعني ذلك كله؟ ألا يردك إلى الله ويعلقك به؟

ومع ذلك فيوجد من الناس من يقول لك: إن الساعة التي في معصمك قد استدارت تروسها وتشابكت آلاتها وانضبطت دقائقها تحرك عقرب الثواني، وتحرك عقرب الساعات بعدما تحرك عقرب الدقائق كل ذلك بمحض الصدفة!

فهذا الحساب المحصى للزمن لم تشرف على تسجيله وإحكام مراصده فكرة واعية ولا يد صناع! كذلك يقول بعض المتعالمين عن السموات والأرض وما بينهما.

وقد تحدث هذا العارف الحصيف عن الصدفة وما ينسبه لها الواهمون من تنظيم واقتدار فقال: «إن الصدفة تبدو شاردة غير منتظرة أو غير خاضعة لأية طريقة من طرق الحساب عند قليلي الخبرة، ضعاف الملاحظة.

ولكن إذا كنا ندهش لمفاجآتها فإنها- مع ذلك- خاضعة لقانون صارم نافذ! لنفرض أن معك كيسا يحوي مائة قطعة رخام تسعة وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء.. والآن هز الكيس وخذ منه واحدة، إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة واحد إلى مائة، والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس وابدأ من جديد... إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة، وإن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (المائة بعدما ضوعفت مائة مرة)!

ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية!

إن نتائج المصادفة مقيدة بقانون صارم تقييدا وثيقا كما أن اثنين واثنين يساويان أربعة»

ويقول في مكان آخر «وإذا نظرنا إلى حجم الكرة الأرضية ومكانها في الفضاء وبراعة التنظيمات التي تمسكها فإن فرصة حصول بعض هذه التنظيمات مصادفة هي بنسبة واحد إلى مليون. وفرصة حدوثها كلها لا يمكن حسابها حتى بالبلايين.

ونقول بل لا يمكن افتراضها إلا في تصور المستحيلات، فإن العقل الذي يمنع أن تبني المصادفات دارا من بضع حجرات يجزم آكد الجزم بأن هذا العالم الكبير- بأفلاكه وآماده وحيوانه وجماده وإنسه وجنه- يستحيل أن تنشئه صدفة عارضة!

ثم هل نحسب أن مؤونة إبقائه وحياطته أيسر من إيجاده لأول مرة؟

إن كلا الأمرين ليس إلا لله ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (**الزمر**: ٦٢، ٦٣).